ARTÍCULOS

Anaquel de **Estudios Árabes**
ISSN-e: 1988-2645

https://dx.doi.org/10.5209/anqe.83372

EDICIONES COMPLUTENSE

ثورة العشرين إطاراً سردياً: عن تضمين ثورة العشرين في الرواية العراقية الحديثة

Hosni Mlitat[1]

Recibido: 28 de julio de 2022/ Aceptado: 19 de octubre de 2022

ملخص. تبحث هذه الدراسة مفهوم «التأطير» للحديث عن دلالة «تضمين» ثورة العشرين في السرد العراقي المعاصر، وذلك بدراسة نماذج روائية «مثّلت» أحداث تلك الثورة بطريقتين اثنتين: تضمين أحداثها داخل السياق الروائي كله كما هو الحال في روايتي «جلال خالد» و «الزناد»، واستعارة الشخصيات التاريخية وبناء بعض أحداث الثورة من خلالها، كما هو الحال في روايتي «حقول الخاتون» و»خاتون بغداد»، ويسعى الباحث من خلال هاتين الطريقتين التعرّف إلى أهمية تمثيل الحدث الثوري في الرواية العربية، والكشف عن دورها في التطوير الدلالي لذلك المفهوم أدبياً، ويخلص الباحث إلى أنّ إعادة سرد أحداث الثورة روائياً توضيحٌ للمعاني الدلالية الحديثة والمعاصرة للوقائع التي تعيشها العراق.
الكلمات المفتاحية: الثورة العراقية ، رواية عراقية معاصرة ، السياسة والسرد

[es] La Gran Revolución como marco narrativo: sobre la inclusión de la Gran Revolución en la novela iraquí moderna

Resumen. Este artículo adopta el concepto de “encuadre” para abordar el tratamiento de la Gran Revolución de 1920 en la narrativa iraquí contemporánea. Para ello se estudian los modelos ficticios que “representaron” los acontecimientos de esa revolución de dos formas: incluyendo los acontecimientos en el contexto narrativo de las novelas *Jalal Khaled* y *Al-Zinad* y presentando algunos de los protagonistas de los eventos, como en el caso de las novelas *Hoqul Al-Khatoon* y *Khatoon Bagdad*. De este modo se destaca el valor del hecho revolucionario en la novela árabe y se revela su papel en el desarrollo semántico de ese concepto desde el punto de vista literario. El artículo llega a la conclusión de que la representación de los acontecimientos de la Gran Revolución en las novelas iraquíes es una explicación de los significados semánticos contemporáneos de las realidades que atraviesa Iraq en la actualidad.
Palabras clave: Revolución iraquí de 1920; literatura contemporánea iraquí

[en] The Great Revolution as a narrative framework: On the inclusion of the Great Revolution in the modern Iraqi novel

Abstract. In this article, the researcher studies the concept of «framing» to talk about the meaning of the inclusion of the Great Revolution in the modern and contemporary Iraqi narrative, through the study of fictional models that «represented» the events of that Revolution in two ways: including its events in the narrative context, as in the novels: *Jala Khaled* and *Al-Zinad*, and presented historical characters and building some of the events of the Revolution through it, as in the novels: *Hoqul Al -Khatoon* and *Khatoon Baghdad*. In this way, the researcher works to identify the importance of representing the revolutionary event in the Arabic novel, and to reveal its role in the semantic development of this concept in literature. The researcher concludes that the representation of the events of the revolution by the novels is an explanation of the modern and contemporary semantic meanings of the realities Iraq is going through.
Keywords: The Iraqi revolution; Contemporary Iraqi literature.

[1] Institución: Arab American University (Ramallah, Palestina)
E-mail: hosni.mlitat13@gmail.com

Cómo citar:

حسني مليطات، « ثورة العشرين إطاراً سردياً: عن تضمين ثورة العشرين في الرواية العراقية الحديثة»، مجلة أناكيل للدراسات العربية والاسم 34-1 (2023)، ص. 181-192. https://dx.doi.org/10.5209/anqe.83372

Hosni Mlitat, "Ṯawrat al-ʿašarīn itaran sardiyyan: ʿan taḍmīn ṯawrat al-ʿašarīn fī al-riwāya al-ʿirāqiyya al-ḥadīṯa", *Anaquel de Estudios Árabes* 34/1 (2023), 181-192. https://dx.doi.org/10.5209/anqe.83372

المقدمة

في كثير من الأحيان، يلجأ بعض الكُتّاب إلى توظيف تقنية «التأطير» السردي لبعض الأحداث الواقعية أو التاريخية؛ بهدف الاستناد عليها لبناء «فكرة النص»، وتوضيح أبعاده الدلالية والسياقية بشكل عام، ومفهوم التأطير جزء من المفاهيم النوعية في السرد الروائي الحديث، يُقصد به «تضمين» قصة داخل قصة أخرى، وقد سميت تأطيراً؛ «لأنها تؤطر غيرها بحضورها في موطنين على الأقل هما البداية والنهاية مثلما هو الحال في القصة التي تؤطر في حكايات ألف ليلة وليلة»[2]، كما تُستخدم هذه التقنية -كما يرى تزفيتان تودوروف- داخل العمل السردي كـ «دليل»[3]على ما يحيط النص من أفكار ومعاني. وتخدم تقنية التأطير/ التضمين «مركزية النص» كله؛ حيث تساعد على «تناسق الأفكار» داخل السياق، وذلك من خلال استدعاء المرويات المتعددة، التي تجمع كلها على معنى دلالي واحد في العمل السردي كله، وتتنوع تلك المرويات وفق الحدث المسرود، فقد تكون مرويات واقعية أو مرويات تاريخية، تتجانس أحداثها مع بعضها البعض، سواء في الفكرة أو الدلالة.

وتعتبر ظاهرة «تضمين التاريخ» من الظواهر التي أخذت تشيع في السرد العربي الحديث والمعاصر، وذلك لبرهنة الأحداث الواقعية التي يتحدث عنها السارد من جهة، ولتمثيل representación الحدث التاريخي نفسه من جهة أخرى، لاسيما إذا كان ذلك الحدث التاريخي المؤطر على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالزمن الواقعي الذي يعيشه الكاتب.

ويكون شكل التضمين في المتن السردي ظاهرا في صيغتين، هما: الوقفة السردية، وذلك من خلال «قطع الزمن» المروي بتضمين قصة ما تابعة للمحور السردي العام أو تُستخدم كدليل على ما يُتحدث عنه داخل الرواية، وهذه الصيغة شائعة في الرواية العربية، وتعتبر من وسائل «تبطيء الزمن السردي»، أما الصيغة الثانية فهي توظيف زمنيين سرديين، هما: الزمن الواقعي، الذي قد يتوافق ربما مع «زمن الكاتب» نفسه، والزمن التاريخي، وهو الزمن «الاستعاري» الذي يلجأ إليه الكاتب للربط بين كلا الزمنيين، وذلك لاعتبارات تتوافق مع «الرؤية» الكلية للروائي، وفي كلتا الصيغتين، فإنّ «تضمين» قصة ما هو عبارة عن «برهان» سردي يستند إليها الكاتب لتدعيم فكرة النص، وتعتبر أحداث ثورة العشرين في السرد الأدبي من الأمثلة الواضحة على ذلك؛ حيث يمكن أن نصف أحداثها داخل العمل الأدبي بأنها أحداث «مضمنة» لتوثيق التاريخ العراقي، لاسيما الحديث منه.

وقد عُرفت ثورة العشرين بأنها الحدث التاريخي الفاصل الذي قام به العراقيون ضد الاحتلال الإنجليزي عام 1920م؛ حيث كانت الحقبة الزمنية لما قبل الثورة مغايرة عن تلك التي كانت بعدها، بالإضافة إلى أنها كانت ثورة تجديدية ليس في السياسة فحسب، وإنما في ذات العراقيين أيضاً، حيث استطاعت أن «توحدّهم» على قرار سياسي واحد، «فقد قام الشيعة والسنة بمظاهرة وطنية ولائية كبرى، وهم يدعون للاتحاد في سبيل الوطن، ومن مظاهر هذا الاتحاد حفلات المولد المشتركة التي كانت تُقام في المساجد، فيحضرها السنة والشيعة، ويحولون الحفلة بعد الصلاة إلى اجتماع سياسي تُلقى فيه الخطب المشعلة لنار الثورة، وتتلى القصائد المثيرة كالرياح لهيبها»[4]، كما أنها اندلعت في معظم أرجاء العراق دون تدخل من الزعامات باستثناء بعض المناطق، ولذلك فقد وصفها أمين الريحاني بأنها «ثورة ولا كالثورات، وأغرب ما فيها أنها اشتعلت اشتعال النّار في الهشيم، دون زعامة تُعرف أو ترى، إلا إذا حُصرت في مجتهدي النّجف الذين أضرموا نارها وتواروا، فسكتوا بعد ذلك وأسكتوا»[5].

وبالتالي، فإنَّ قصدية الثورة هي الانتقال من مرحلة إلى أخرى؛ لتحقيق هدفين رئيسيين، هما: الحرية والتحرر، ونيل المطالب والحقوق، وهي الأهداف الفعلية التي يسعى إليها الثائرون في كل مكان، على اعتبار

---

2 محمد القاضي، معجم السرديات، (تونس: دار محمد علي للنشر، 2010م)، ص334

3 ينظر: تزفيتان تودوروف، الناس-الحكايات: «ألف ليلة وليلة» كما ينظر إليها التحليل البنيوي، لبنان: مجلة مواقف، ع16، 1 يوليو 1971م، ص143

4 أمين الريحاني، فيصل الأول، (بيروت: مطبعة صادر، 1934م)، ص31

5 المرجع السابق، ص33

أن فعل الثورة مرتبط دائما بـــ «الحرية» و»التجديد» و»الإصلاحات»... وغيرها، يقول كوندورسيه: «إنَّ كلمة الثورة لا تنطبق إلا على الثورات التي يكون هدفها الحرية»[6]، وهو ما حاول العراقيون تحقيقه بكل الوسائل التي كانت متاحة بين أيديهم.

ومن الأعمال الأدبية التي «أطرت» الثورة وضمّنتها، وجعلت من أحداثها قصصا سردية مضمنة لتكوين أحداثها: رواية «جلال خالد» للكاتب العراقي محمود أحمد السيّد، ورواية «**الزنّاد**» للروائي العراقي شمران الياسري المعروف باسم (أبو كاطع)، ورواية «حقول الخاتون» للروائي العراقي حمزة الحسن، ورواية «خاتون بغداد» لشاكر نوري، بالإضافة إلى بعض القصص الموجهة للأطفال، التي خصصها الكاتب العراقي جاسم محمد صالح لتخيل أحداث ثورة العشرين[7].

وكان الحديث عن ثورة العشرين في هذه الأعمال متفاوتا، فلم يكن حضورها في كل تلك الأعمال مباشرا؛ بمعنى لم يقم الكتاب الذين ذكرناهم آنفاً بالحديث عن «الصدام المباشر» بين العراقيين والإنجليز، باستثناء قصص الأطفال التي فصّل فيها الكاتب جاسم محمد صالح أحداث الثورة بشكل مباشر، وإنما كان تمثيل الثورة في تلك الأعمال الروائية مقتصرا على ذكر آثارها، وتصوير حال العراقيين خلال وبعد اندلاعها، مع إشارات وصفية قصيرة لحال بعض المقاتلين فيها، ليكون استحضارها -كما أشرنا في البداية- إطاراً سردياً داعماً لأفكار الراوية كلها.

أما اقتصارنا على هذه الأعمال الأربعة فيعود إلى عدم تمكننا من الحصول على بعض الأعمال السردية الأخرى التي تحدثت عن ثورة العشرين، لاسيما رواية «الراووق» للروائي العراقي عبد الخالق الركابي، الذي أطر فيها لأحداث ثورة العشرين، وقد أخبرنا الروائي عبر شبكة التواصل الاجتماعي «فيسبوك» عن عدم وجود الرواية كنسخة مصورة، ولا حتى نسخة ورقية جديدة، إذ لم تُعد طباعة الرواية كحال روايات الكاتب الأخرى، أما رواية «أطراس الكلام» للروائي نفسه، فلم نجد فيها إلا ذكرا اسميا فقط لثورة العشرين، كما تجدر الإشارة إلى أن الناقد باسم عبد الحميد حمودي رصد بعض الأعمال القصصية التي تحدثت عن الثورة في كتابه «رحلة مع القصة العراقية»، إلا أننا لم نتمكن من قراءة أي قصة منها؛ لعدم توفرها في المكتبات -بأنواعها-، ولا حتى على الشبكة العنكبوتية، وعلى العموم، فإنّ الأعمال المختارة في هذه الدراسة تعتبر نموذجا يمكن تطبيقه على الأعمال الأدبية الأخرى التي لم يستطع الباحث الحصول عليها.

1. تضمين الثورة في رواية «جلال خالد»

توقف الكثير من النقاد العراقيين[8]أمام «تجربة» محمود أحمد السيد الأدبية، حيث درسوا أفكاره السياسية ودورها في تشكيل كتابة أدبية استثنائية على صعيد «تطوير الأسلوب» الكتابي، ونضوج العمل القصصي، واتفق معظم هؤلاء النقاد على أن رواية «جلال خالد» تعتبر العمل الكتابي الأول الذي «تؤرخ بها بداية القصة الفنية في العراق عام 1928م»[9]، وقد وظّف السيّد أعماله، لاسيما الأخيرة منها للتعبير عن الحياة السياسية وحتى الفكرية التي كانت تعيشها العراق، ويرى الناقد عمر الطالب أن أيديولوجية السيد كانت السبب الرئيسي لميله نحو الكتابة الأدبية، يقول: «كان محمود السيّد ممثلا للطبقة الوسطى النامية، وكانت آراؤه ومعتقداته السياسية الدافع الأساسي للكتابة»[10]، ولعل إيمانه بالاشتراكية والإفادة من بعض القوميين العرب أمثال شبلي شميل وسلامة موسى، بالإضافة إلى اعتنائه الخاص بيوسف يزبك[11]أسهم في «التكوينات الدلالية» في رواية «جلال خالد»،

---

6 حنه أرندت، في الثورة، ترجمة: عطا عبد الوهاب، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008م)، ص38

7 كتب جاسم محمد صالح عددا من القصص الموجهة للأطفال التي تحاكي أحداث ثورة العشرين، ونشر بعضها في مجموعة بعنوان «الحصار، ثلاث قصص عن ثورة العشرين»، وقد صدرت عن دار الثقافة للأطفال، إلا أن الباحث لم يتمكن من الحصول عليها، وبعد البحث والتنقيب، استطاع الباحث أن يتواصل مع الكاتب نفسه، ويحصل على مخطوطتين من هذه القصص، وهما قصة «الفأس» وقصة «الليرات العشر»، وهاتان القصتان متصلتان بالأحداث التاريخية المجردة، ويمكن اعتبارهما تلخيص للحدث التاريخي بتوظيف لغة مبسطة تتوافق مع الفئة العمرية التي كتبت من أجلها، فقصة «الفأس» تتحدث عن شخصية رجل عراقي أبكم، يعتبر أول شهيد في أحداث الثورة، وقد عبّر عن آلام شعبه من خلال لغة الإشارة الخاصة به، أما قصة «الليرات العشر» فهي قصة تخيلية لشخصية أحد قادة الثورة «شعلان أبو الجون»، وبمقارنة القصة مع ما ورد في كتب التاريخ، خلص الباحث إلى أن جاسم محمد صالح لجأ إلى تلخيص حادثة اعتقال شعلان أبو الجون، دون إضفاء لغة فنية واضحة في العمل القصصي، بالإضافة إلى توظيف «اللغة الثورية» التي وجدناها في كتب بعض المؤرخين الذين دوّنوا أحداث تلك الثورة.

8 من أهم هؤلاء عمر الطالب، ونجم عبد الله كاظم وعبد الإله أحمد، وعلي جواد الطاهر وغيرهم.

9 عبد الإله أحمد، الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية، الجزء الأول، (العراق: منشورات وزارة الاعلام، 1977م)، ص22

10 عمر الطالب، الفن القصصي في الأدب العراقي الحديث، «الرواية العربية في العراق»، الجزء الأول، (بغداد: منشورات مكتبة الأندلس، 1791م)، ص87

11 ينظر: أحمد، ص86

التي تضمنت مثل هذه الأفكار من خلال «العلامات القولية» التي أجراها على لسان الشخصيات المحورية في الرواية، وبالتالي استطاع السيد في هذا العمل أن يخرج عن «تقليدية السرد» وينتقل إلى محاكاة الواقع بتقنيات وإن كانت بدائية إلا أنها كانت كافية لانضاج فكرة النص، يقول نجم عبد الله كاظم: «استطاع السيد أن يجد لنفسه أسلوب قص على شيء من التميّز، خصوصا بعد أن تخلص من الإغراق في المد الرومانسي الذي انعكس في عمليه الطويلين السابقين، كما أنه استطاع أن يتعامل مع القضايا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والثقافية التي تنمّ عن درجة لا بأس بها من النّضج»[12].

حاول السيد في رواية «جلال خالد» أن يؤطر لكل الأحداث والوقائع التي تمر بها العراق والعالم العربي على حد سواء، فكانت المرويات السردية على لسان شخصياته مدمجة في أطروحاتها المتنوعة، إلا أنّ اللافت في كل ذلك «الأسلوب التعبيري» الذي اتبعه لتوضيح تلك الأطروحات؛ إذ اعتمد على المشاهد السردية، والمعاني الرمزية، فكان لكل قول دلالة تحيل إلى منهجيته وآراءه الفكرية، وتعد ثورة العشرين واحدة من تلك الأطروحات التي كان يرى فيها السيّد «مركزية الحدث» الذي كان يشغله ويشغل العراقيين أيضا، لاسيما وأن ثورة العشرين تدلل على «النضج الثوري الوطني، وهي المظهر الأول الضخم للحركة الوطنية الحديثة في العراق، بالإضافة إلى أنها خلقت حركة شعبية متميزة»[13]، وبالتالي فإن العمل على تأطير أحداثها في النص السردي بمثابة توطيد أهمية تلك الثورة، وتوضيح معان منتجة من أحداثها، مثل: الاستعمار والحرية... الخ.

كان الحديث عن ثورة العشرين في هذه الرواية من خلال تنبؤات جلال خالد بوقوعها قبل اندلاعها بأشهر قليلة، ويظهر ذلك في المشاهد الحوارية التي تمت بينه وبين الكاتب الهندي، على اعتبار أن شخصية المثقف الهندي لم تأت عبثا، وإنما كانت «شخصية دلالية»؛ ليمهد من خلالها للحديث عن تلك الثورة، بالنّظر إلى أن الهند كانت تعاني في ذلك الوقت من قسوة الاستعمار نفسه، وبالتالي فإن «الشعور الثوري» بين كلتا الشخصيتين واحد، وتضمن المشهد الحواري الذى جرى بينهما عددا من المعاني السياقية التي تحيل إلى مفاهيم متعلقة بالثورة مثل: الحرية والاستعباد والقسوة والرحيل...الخ، يقول الكاتب الهندي وجلال:

- إذن، لقد خرجتم من بغداد تخلّصاً من شدة وطأة الاحتلال؟
- كرهت أن أبقى فيها وأنا لا أرى أمامي إلا حرية مستلبة، وحقا مضاعا، وسجنى يكسرون الصخور على قوارع الطرق.
- ولكننا نحن الذين ندعى بالوطنيين في الهند لا نبرحها، وههنا ههنا في هذه المملكة العظيمة المحروبة نثير المواطنين.
- ومَنْ يدري؟ لعلنا نحن أيضا نثير المواطنين في الغد!
- أتعتقد أنّ الثورة ستحدث عندكم كما نقل إليك أصحابك البغداديون في رسائلهم الأخيرة؟
- ربما، لأننا حقا لنا وعودنا به. وهم جاءونا كما قالوا محررين منقذين.
- أشك في حدوث ثورة عندكم، ومع ذلك فإنّي أتمناها لكم، فليس أول منها على النهضة واليقظة والتمسك بالحق والحياة[14].

المشهد الحواري السابق عبارة عن إعادة تصوير للأفكار الثورية التي يتقول بها الثائرون، والتي تُظهر الذات العراقية التي كانت تعاني قسوة الوجود الاستعماري، فالتلفظ بكلمات مثل: الكره، الحرية المستلبة، الحق الضائع، السجناء، الكسر..، علامات قولية تصف «الحالة» التي كان يعيش عليها العراقيون قبل اندلاع الثورة، وهي العلامات نفسها التي ستكون السبب المباشر لنشوب ثورة العشرين، ولعل السعي للتحرر والخلاص من سطوة الآخرين من أهم المحفزّات للقيام بالثورة، على اعتبار أن مفهوم الثورة يعني التجديد، وإعادة رصّ الصفوف لمواجهة الآخر، الذي يسعى إلى تقييد حرية من هم أضعف منه، ولذلك فإنَّ الثورات الحديثة «تسعى إلى التحرر من قمع الحريّة الذي يشبه في هذه الحالة كبح حركة الأجسام. إنه تحرر من القيود التي تكبّل حرية الإنسان، يضاف إليه التحرر من الخوف ومن الحاجات الأساسية التي في حالة عدم تلبيتها تستبعد الروح والجسد»[15]، وفي هذا يقول فريق المزهر آل فرعون:

---

[12] نجم عبد الله كاظم، التجربة الروائية في العراق في نصف قرن، متابعة تاريخية وتحليل موجز لأبرز المحاولات الروائية، (العراق، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 6891م)، ص24

[13] أحمد، ص46

[14] محمود أحمد السيّد، «جلال خالد: قصة عراقية موجزة»، مجلة الأقلام، ع5 (1 مايو 7791م)، ص79

[15] عزمي بشارة، في الثورة والقابلية للثورة، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012م)، ص48

«إنَّ الأمر الواقع الذي نسجله للتاريخ، هو أن العراقيين ما كانوا يقصدون غير الحصول على الاستقلال التّام، ولو استعمل ساسة بريطانيا اللين، ولو سلّموا للأمر الواقع، لما حدثت الثورة، ولربحت بريطانيا صداقة العرب بعد أن تفي بعهودها وتؤسس لهم دولتهم الكبرى المستقلة»[16].

كما كان الحديث عن ثورة العشرين في رواية «جلال خالد» من خلال توظيف تقنية «الرسائل المتبادلة» بين جلال وصديقه أحمد مجاهد، الذي كان أحد المشاركين في أحداث الثورة منذ بدايتها، وهو «الناقل المباشر» لمجريات أحداثها إلى جلال، وبالتالي فقد كان تصوير الثورة من خلاله مباشرا، حيث استعرض -بصورة مباشرة- أسباب اندلاع الثورة، والتغيّرات السياسية التي حدثت في العراق أثناء ذلك، يقول أحمد مجاهد:

> أخي جلال، لم أراسلك منذ شهر، لا تعتب عليّ فإنني لمعذور، يستغرق كل وقتي أداء الواجب الوطني. وقد ما كنّا نحسبه، وكتب إليك صاحبنا (ك. س) قبل أسبوع: أنّ القبائل في شمالي بغداد رفعت للثورة رايتها، وأضرمت نارها الحامية...[17].

وقد حاول السيّد من خلال هذا الأسلوب أن يفسر رؤيته من تلك الأحداث، وأن يجعلها إحدى الأفكار الرئيسية والمهمة المتضمنة داخل المتن السردي، مع الأخذ بعين الاعتبار أن «فكرة الرواية» هي مناقشة الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية التي كانت تمرّ بها البلاد العربية عامة وبلده العراق خاصة، ولذلك «التعبير السردي» الذي أجري على لسان السارد أو الشخصيات الثانوية الأخرى كان بمثابة «التوضيح المباشر» لتلك الأوضاع؛ فعلى سبيل المثال، نجد أن بعض المشاهد السردية بين المثقف الهندي الكاتب وجلال قد تضمنت الحديث عن القومية العربية والوجود الإنساني، وهي مسائل مهمة، كانت قد طرحت نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين إبّان النهضة العربية الحديثة، تلك المسائل التي نوقشت في مجلات المقتطف والهلال والمشرق وغيرها، لاسيما وأن السيد كان متأثرا -كما أشارنا سابقاً- بالأفكار الاشتراكية، التي يدعوا من خلالها إلى الدفاع عن حقوق الآخرين والمساواة بينهم، ومناهضة العنف بكل أنواعه، ولذلك يعتبره مجيد خدوري بأنه «من أوائل من استهواه الفكر الاشتراكي، فأصدر بضع قصص طويلة وقصيرة تدور حول موضوع عام واحد هو الفقراء والتعساء، وواجب النضال لتحريرهم من أوضاعهم اليائسة.. ووصف في قصتيه «جلال خالد» و «مجاهدون» الأوضاع الاجتماعية في العراق وعبّر عن مطامح زملائه الاشتراكية»[18].

2. «الزّناد»، سرد حياة العراقيين بعد الثورة

إنَّ رواية «الزّناد» للروائي العراقي شمران الياسري (أبو كاطع) واحدة من رباعيته المعروفة باسم «رباعية أبو كاطع»، التي صدرت في سبعينيات القرن الماضي، وأعيد نشرها عام 2007م، وقد حاول في هذا المشروع الأدبي أن يعيد أهم الأحداث التاريخية الحديثة التي وقعت في العراق، فخصص كل رواية لسرد زمن تاريخي محدد، وكانت البداية مع رواية «الزناد»، التي تبدأ أحداثها الروائية بعد السنة الثالثة من انتهاء ثورة العشرين، وحاول الياسري في هذه الرواية الدخول إلى حياة المجتمع العراقي «عن قرب»، والتعريف بعاداته وتقاليده، ونقل طبائعه وتصرفاته وحتى طرائق تفكيره، موظفا أسلوبين مهمين، هما: السخرية واللهجة العراقية، وهما أسلوبان شائعان في كل صفحات الرواية، ما يجعل قراءة النص من قارئ غير عراقي تصعب قليلا.

ضمَّن الكاتب بعض أحداث ثورة العشرين في الصفحات الأولى منها فقط، وذلك أثناء الحديث عن بعض شيوخ العشائر الذين تقاضوا الأموال من الإنجليز، قبل أن يدخل السارد في «سرد موازي» للتعبير عن حياة بعض الشيوخ الآخرين الذين شاركوا في أحداث الثورة، وقاتلوا الإنجليز بشجاعة، فالمعروف أن الإنجليز حاولوا أن يوحدوا العشائر على خلاف السياسة التركية التي عمدت إلى التفريق بينهم، فقاموا من أجل ذلك بتدعيم شيوخ العشائر بالأموال والهبات، في سبيل الحفاظ على الأمن في المنطقة التي يكون هو المسؤول عنها[19]، وبذلك «تنشأ منفعة متبادلة بين الإنجليز وهذا الشيخ المختار، فهم من جانبهم يحصرون السلطة في يده، ويفضلونه على منافسيه في المعاملة ويخففون عنه عبء الضرائب، وهو من جانبه يقوم بتنفيذ ما يأمرونه به ويحمي مصالحهم»[20].

---

16 فريق المزهر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة 1920 ونتائجها، (بغداد: مطبعة النّجاح، 1952م)، ص99

17 السيّد، ص102

18 مجيد خدوري، الاتجاهات السياسية في العالم العربي «دور الأفكار والمثل العليا في السياسة»، (بيروت: الدار المتحدة للنشر، 1972م)، ص117

19 ينظر: علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الخامس، (بغداد: دار الوراق للنشر، 1969م)، ص24

20 91 المرجع السابق، ص42

فقام الياسري (أبو كاطع) بإعادة تصوير هذه الفكرة التاريخية من خلال شخصيات ابن طرفه وشيخ آل صكب وغيرهم، وهي الشخصيات التي يمكن أن نطلق عليها اسم «الشخصيات المُفسرة» لتلك الفكرة من وجهة نظر روائية أدبية، يقول السارد على لسان إحدى الشخصيات، والتي أطلق عليها اسم خلف:

«قال لي أن ابن طرفه عاد من بغداد يحمل ألف روبية هدية من الحاكم الإنجليزي.. وقال إن شيخ آل صكب نال هو الآخر ألف روبية.. وثمة شيوخ من مناطق أخرى لم يكن حظهم من العطاء أقل..»[21].

وتساءل حسين وسعدون عن أسباب ذلك العطاء كله، ليخلص حسين إلى أن هذه الأموال هي «دية ثوار الفرات يدفعونها لشيوخ العشائر بدجلة!»[22]، ويرى أن الإنجليز حين يرغبون في تكريم ابن طرفة أو غيره من شيوخ العشائر، فلا يكون ذلك حبّا بما أسماه ساخراً «نقراش الجدري الذي يشوه وجهه»، وإنما من أجل عشيرته ذاتها، محاولين بذلك توطيد «سيطرتهم على الريف العراقي»[23].

كما تم تضمين الثورة أثناء تخيّل حسين -إحدى الشخصيات الرئيسية في الرواية- لمواقف صديقه خلف في إحدى معارك الثورة، وكان ذلك التخيّل عبارة عن «استرجاع زمني» يحاكي حدثا فعليا حصل مع خلف؛ يهدف حسين من ورائه إلى تفسير أسباب الهزيمة التي لحقت بالعراقيين مع انتهاء أحداث الثورة، فكان خطابه السردي متضمنا لعدد من الوظائف الدلالية المنبثقة من اللغة السردية التي وظفها الكاتب لذلك، أهمها «الوظيفة التعبيرية» أو «الانفعالية»؛ وهي التي «تُعبّر بصفة مباشرة عن موقف المتكلّم تجاه ما يتحدث عنه»[24]، يقول السارد:

«رمق خلفاً بنظرة احترام أججتها الذكرى، تخيّل وقفته يوم المعركة حين خرج من النّهر، ووقف على المترب ليزرع شيئا من الشجاعة، في قلوب الذين انخلعت قلوبهم هلعاً و(غافل) واحد منهم، ردد خلف هوسته يومذاك بصوت يتدفق حرارة وإصرارا ممسكا ببندقيته من وسطها ملوّحا بها عالياً، وكأن لعلة الرصاص زغاريد عرس، وشظاياه من حوله، آه يا خلف لولا قلبك الطفولي -بيدر حنطة بلا حُرّاس- حتى لكأنّك تهوى أن تكون المخدوع أبدا، المكذوب عليه دائما تماسك الرجال، استمدوا العزم من (هوستك) طوبى لمن ملك زمام نفسه عند زخة الرصاص الأولى، بعدها تعداد أذناه على أزيز الرصاص، ويتباطأ نبض القلوب. أن تعقل ركبتيك في الخندق، فذلك شيء رهيب، لكنه شرط الانتصار، لو فرض الثوار على رؤسائهم أن يعقلوا الأرجل في الخنادق الأمامية، لما فشلت الثورة، ولما سيطر الإنجليز، لكنهم كما وصفهم المهوال (بلّشها ونام ابسردابه)[25]»[26].

فالخطاب السردي السابق هو عبارة عن خطاب تخيلي، يصور موقف بعض العراقيين من نتائج الثورة، بالإضافة إلى إعادة تصوير شخصية «العراقي الثائر»، والمتمثل بشخصية (خلف)، والملاحظ أيضا في هذا النص، التعبيرات البلاغية التي أسهمت في تعزيز قيمة «التمثيل السردي» من خلال إضفاء معنى دلالي يوضح مفاهيم «الشجاعة» و «القوة» و «الهزيمة» أيضا، ووجود مثل هذه التعبيرات يجرد الحدث التاريخي من حرفيته، ويجعله حدثا متخيلا يعكس بعض الحقائق التي عجز بعض المؤرخين عن تدوينها، بالإضافة إلى أنَّ الروائي يبحث باستمرار عن الشخصيات والأحداث المغيبة، ليعيدها إلى المتلقي بصورة ذات دلالة، ولذلك يقول عبد الرحمن منيف: «الروائي يتوجه في معظم الحالات إلى (التاريخ المغيّب)، الآخر، ليس من أجل إعادة كتابة التاريخ، وإنما من أجل عرض الوقائع، والتنصّت إلى أصوات الذين لم تُتح لهم الفرصة لكي يسمعوا أصواتهم، لإبداء وجهات نظرهم مباشرة..»[27]، وهذه إحدى أهداف تأطير الحدث التاريخي المهم، الذي يحتاج كاتب الرواية إلى معرفته؛ فالبحث عن الأحداث المغيبة والمجهولة، وإعادة الحياة إليها بأسلوب فنيّ إبداعي، يجعل العمل الروائي ذا دلالة وأهمية في المجتمع الذي كُتب لأجله، وبالعودة إلى ما كتبه الياسري، فإنه عبارة عن نص فنّي متكامل، يوجز بعض الأحداث التي وقعت أثناء ثورة العشرين، وتظهر «فنيّة النص» في «الألفاظ البلاغية» المستخدمة، والتي يهدف استخدامها إلى نقل القارئ إلى العالم الذي تعيشه الشخصية الروائية نفسها، فوصف

---

21 02 شمران الياسري، رواية الزناد، ط2، (بغداد: دار الرواد المزدهرة للطباعة والنّشر والتوزيع المحدودة، 7002م)، ص61

22 43 المرجع السابق، ص71

23 53 الوردي، ص42

24 63 رومان ياكبسون، *قضايا الشعرية*، ترجمة: محمد الولي، (المغرب: دار توبقال للنشر، 8891م)، ص82

25 * قول عراقي يُقصد به هروب الشخص أو اختفائه، تاركا الآخرين يواجهون مصيرهم لوحدهم، وهذا يتوافق مع الحالة التي كان عليها الثوار في ثورة العشرين، عندما تخلّى عنهم قادتهم، وتركوهم هاربين، ما سهل على الإنجليز الانتصار عليهم.

26 73 الياسري، ص19

27 عبد الرحمن منيف، «التاريخ ذاكرة إضافية للإنسان»، مجلة الكرمل، ع63، (2000م)، ص94

«الحالة» التي كان عليها خلف أثناء حمله السلاح، وقتاله ببسالة عبارة عن استعارات حيّة لتعزيز معنى «قوة العراقي الثائر»، في المقابل لإظهار أن تلك القوة لم تلق مساندة من أحد، وكأن خلف كان وحيدا في تلك المعركة، «كبيدر حنطة بلا حراس»- كما قال السارد-، فكان منهج خلف في القتال هو «الرسوخ» في الخنادق، وعدم الخروج منها حتى ينال إحدى الأمرين: النصر أو الشهادة، أما بعض القادة الآخرين -ممن يدّعون أنهم ربان سفينة الثورة، فعزموا على مغادرة الخنادق هاربين، فكانت النتيجة هزيمة الثوار، وفي هذا يقول علي الوردي: «ولولا وقوف بعض الشيوخ الكبار إلى جانبهم في ساعة المحنة، لربما صار مصيرهم في العراق كمصيرهم في السودان في أثناء ثورة المهدي المعروفة»[28]، وجاء هذا القول بعد الحديث عن الثورة المسلحة في شهر تموز من عام 1920م، والتي انتشرت في منطقة ما تعرف باسم «الفرات الأوسط»، وهي المنطقة التي مثّلت «البؤرة المركزية» لأحداث ثورة العشرين، إذ كانت هي «بمثابة العمود الفقري لثورة العشرين كلها، ففي هذه المنطقة حصلت الانتصارات الكبرى للثورة، كما أن هذه المنطقة هي التي تحملت العبء الأكبر من التضحيات في الأنفس والأموال، وصمدت للقتال فترة طويلة نسبياً»[29].

والحدث المقصود في النص الروائي المقتبس من رواية «الزناد» يمثل أحداث هذه الثورة، التي وقعت تحديدا في منطقة الفرات الأوسط، والدليل على ذلك بعد أن أنهى حسين من سرده الوصفي، عقّب صديقه سعدون متضايقا: «يا له من رجل متعب... غريب الأطوار... مفتون بالشّعر وبثورة الفرات، حتى بعد فشلها»[30]، وهذا الخطاب القولي يدلل على أن الياسري -الكاتب نفسه- يحاول أن يسلط الضوء على فشل الثورة، وهو خطاب مغاير تماما للخطاب التاريخي المجرد الذي يمكن أن نجده في كتاب آل فرعون، الذي أشرنا إليه سابقا، والذي خصص جزءا كبيرا منه للحديث عن «الانتصارات» التي حققها الثوار ضد الإنجليز.

كما تمّ نعت الثورة بالعورة -وفق تعبير حسين، عندما كان يُحدّث نفسه، ويستذكر بطولات صديقه أبو البينة في إحدى معارك الثورة، يقول: «لقد رآني ألوح بالبندقية وعرف أنني لمحته فحاول أن يتماسك لكن حياته كانت عزيزة عليه، وخجلت.. خجلت يا حسين.. أكره أن أطّلع على عورة.. والهزيمة عورة»[31]. وفشل الثورة لم يكن من منظور الروائي الياسري فحسب، وإنما كان من منظور الروائي العراقي حمزة الحسن أيضا، الذي تحدث موجزا عن الحقبة التاريخية التي اندلعت فيها ثورة العشرين من خلال حديثه الملخص عن حياة مس بيل، إذ كانت الثورات كلها، وثورة العشرين واحدة منها عبارة عن «ثورات وهمية»، بدأت بانتصارات وزغاريد وانتهت بهزائم وتداعيات لذلك الانتصار، يقول السارد -في رواية «حقول الخاتون»- مقارنا حاله وغيره من العراقيين بالقادة الإنجليز الذي مكثوا في العراق: «نحن في متاهة وموسيل ومس بيل والليدي بلنت ولورانس وغيرهم أمام خرائط. نحن أمام ألغاز وهم على مقاعد معاهد الجغرافية العسكرية والتاريخ والأساطير، نحن نصنع ثورات وهمية في حانات قذرة وهم يصنعون منافينا القادمة»[32]، وفي قوله هذا يشير إلى القادة السياسيين -أصحاب الرأي-، ويستشرف مستقبل العراق، الذي سيخوض حروباً وتخاض ضده الحروب، ليكون مصيره حربا أهلية فضيعة مازال أثرها قائما حتى يومنا هذا، وكأن ما حدث في ثورة العشرين صورة عاكسة لما سيحدث بدايات القرن الواحد والعشرين.

3. ثورة العشرين من خلال شخصية مس بيل (الخاتون):

تعتبر شخصية مس بيل من الشخصيات التاريخية المهمة التي يمكن الاستعانة بها لتمثيل ثورة العشرين سواء في كتب التاريخ أو في الأعمال الأدبية المتنوعة؛ فشخصيتها كمرأة سياسية ذكية وأعمالها وعلاقاتها الواسعة، يجعلانها شخصية «مرنة» قابلة لأن تكون شخصية روائية؛ حيث يمكن للروائي أن يستعين بكل ما كتُب عنها، وما كتبته هي عن نفسها، ويبني من خلالها أحداثا متخيلة، مبنية على محوريين أساسيين، هما: الحديث عن الحقبة التاريخية التي عاشتها (وصف الزمن الكتابي)، والاستعانة بها للحديث عن الواقع الذي يعيشه ذلك الروائي نفسه (وصف زمن الكاتب)، وفي كلتا الحالتين، فإن ما تميّزت به شخصية مس بيل جعلها الشخصية «البنائية» للنصوص المتخيلة.

ومن أهم الأعمال الروائية التي أعادت تصوير شخصية مس بيل، واتكأت عليها لتأويل زمني الكتابة والكاتب، رواية «حقول الخاتون»، ورواية «خاتون بغداد»، والملاحظ أن كلا العملين أضفا لقب «الخاتون»

---

28 الوردي، ص341

29 المرجع السابق، ص341

30 الياسري، ص29

31 المرجع السابق، ص27

32 حمزة الحسن، حقول الخاتون، (عمّان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2009م)، ص115

في إشارة إلى مس بيل، على الرغم من أنّ «تمثيل تلك الشخصية» كان مختلفا في كلاهما؛ حيث كان حضورها في رواية «حقول الخاتون» قليلا جدا، ويمكن حصره في بعض المشاهد فقط، أما في رواية «خاتون بغداد»، فقد كان حضورها يشكل البنية الأساسية في تكوين أحداث الرواية، وقد تمثل ذلك الحضور في جعلها ساردة لبعض الأحداث، بالإضافة إلى أنها كانت تمثل «المرآة العاكسة» لمجريات أحداث أخرى حدثت داخل الرواية، واللافت أن «تمثيل الخاتون» في هذين العملين جاء لتحقيق هدف واحد، هو تمثيل التاريخ بهدف التعبير عن الواقع، ويظهر ذلك من خلال «السياق السردي»، الذي يضفي على الشخصية التاريخية سمة «الشخصية المتخيلة»؛ بمعنى التي يمكن أن ننتج من خلالها معنى داخل ذلك السياق، يقول فيليب هامون: «لا معنى للشخصية ولا مرجعية لها إلا من خلال السياق»[33]. تجدر الإشارة إلى أن الزمن الكتابي بين الروايتين ثماني سنوات تقريبا، فـ «حقول الخاتون» صدرت عام 2009م، و «خاتون بغداد» عام 2017م، ولعل صاحب الرواية الأخيرة أفاد من الأولى لتحقيق ذلك الهدف.

تتحدث رواية «حقول الخاتون» عن مجموعة من «غجر العراق» ممن لا مأوى لهم، يهاجرون، يتنقلون، يغادرون، يبحثون عن مكان يجدون فيه ذواتهم، وجاء تصوير معاناتهم من خلال تجسيد عدد من الشخصيات التي يمكن أن توضح حالهم، ومن بين الشخصيات المثيرة، شخصية العجوز المؤرخ (بلزاك)، الذي أرَّخ عائلته وكتبَ سيرة الغجر، والذي شهد مراسم دفن مس بيل في المقبرة الملكية في بغداد، فاستعان به السارد في بعض المشاهد لسرد بعض الحكايات التاريخية التي تلتقي مع «الواقع» الذي يعيشونه، وكان من ضمن الحقب التاريخية التي عرضها ذلك المؤرخ بأسلوب أدبي جميل، حقبة وجود مس بيل في العراق، ذلك الوجود الذي يرتبط باندلاع ثورة العشرين أيضاً.

كان حضور مس بيل في هذه الراوية للمقارنة بين ما كانت تقوم به زمن الوجود الإنجليزي في العراق، وبين ما حدث بعد ذلك من أحداث تاريخية أخرى، من انقلابات وحروب خارجية وداخلية، وفعل المقارنة في هذه الحالة هو تأكيد على «المصير المشابه» الذي عانى منه العراقيون؛ فما قام به الاحتلال الإنجليزي، مشابه لما قامت به أمريكيا بعد غزوها للعراق عام 2003م، ومن المشاهد السردية التي قارن فيها السارد «فعل مس بيل» وغيرها من القادة الإنجليز مع الأحداث اللاحقة التي حدثت للعراقيين، قول السارد:

> «موسيل ومس بيل ولورانس وغيرهم الكثير لا يسردون حكاية النفي بل يخطّطون له لأن وادي الفرات «هو طريق بري مستقبلي إلى الهند»، أما نحن فنعيش النفي دون أن يكون طريق الفرات البري ولا غيره صالحاً لنا كرعايا مشبوهين. في أزمنة لاحقة سيأتي الجنرال شوارسكوف، والجنرال تومي فرانك ... الخ من الجنوب ليس بشحنة غجر ومواطن هارب ومنفي ومتنكر، بل بكل أسلحة العالم ويصبح الجميع غجرا يحلمون بالرّحيل وما من شاحنة...»[34]

وكأن العراقي يعيش داخل بلده منفيا، تائها، لا يستطيع حتّى تقرير مصيره، الذي يتحكم فيه الآخرون، فبعد الحروب والنكبات والثورات التي حصلت في العراق، لم يعد الغجر العراقيون وحدهم مَن يبحثون عن مأوى، بل أصبح كل العراقيين منفيين، كنتيجة حتمية لفعل الحروب القاسية، ولعل الفارق الوحيد، وهو الذي لم يأت عليه الروائي في هذه الرواية، هو أن ثورة العشرين، على اعتبار أنها من الأحداث التاريخية المهمة في العراق، كانت حدثا استثنائيا ومعاكسا تماما لما حدث ومازال يحدث في العراق؛ لأن «ذات العراقيين» أثناء القيام بها كانت «واحدة»، فكل العراقيين كانوا يمثلون الجسد الواحد، لا فرق بين سني ولا شيعي، وهذا معاكس تماما لما حدث في العراق بعد عام 2003 تحديدا وحتى الآن.

وكان «استدعاء» شخصية مس بيل في هذه الرواية لنقد السياسيين العراقيين عبر فترات تاريخية مختلفة، فالمرأة الإنجليزية استطاعت أن ترسم حدود الدولة العراقية وأن تختار شكل علمها الرسمي وأن تصنع الملك الذي تراه هي مناسبة، ولذلك أطلق عليها اسم «صانعة الملوك»، وهي التي كان لها الدور الأبرز في إخماد الثورة، والحد من غضب العراقيين، وذلك بتأسيس مرحلة انتقالية أخرى تتمثل بالمرحلة الملكية التي قادها الملك فيصل الأول، ليكون فعلها كنتيجة حقيقية من نتائج الثورة -أي ثورة- والمتمثلة في «الانتقال» إلى حكم جديد، تقول حنه أرندت: «إنّ ما نسميه الثورة هو بالضبط تلك المرحلة الانتقالية التي تؤدي إلى ميلاد مملكة علمانية جديدة»[35]، وبالعودة إلى المشاهد السردية التي ورد فيها اسم مس بيل، نجدها عبارة عن «مقارنة» لما قامت به هذه المرأة بالحالة التي كان ومازال عليها العراقيون، يقول السارد في أحد هذه المشاهد: «**توازن مس بيل وهي**

---

33 فيليب هامون، سيميولوجيا الشخصية الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2013م)، ص42

34 الحسن، ص67

35 أرندت، في الثورة، ص34

تصمم حدود الوطن على الورق لا يشبه توازن مشرّد أمام رياح الكراهية»[36]، خطاب انتقادي للتعبير عن اللامسؤولية التي غلبت على القادة العراقيين، الذين لم يشغلهم مصلحة «المواطن العراقي»، وإنما انشغلوا فقط بإعداد الحروب الطاحنة لتسلم السلطة، وتسيّد الثورات، ولذلك فمن أسباب انهيار ثورة العشرين -التي كانت مضرب مثل في بداية اندلاعها على الوحدة والقوة-، كما يقول علي الوردي: «التنافس الذي كان موجودا بين رؤساء العشائر، والذي كان مانعاً من قيام القيادة الموحدة بينهم، فهم لا يرتضون أن يكون واحداً رئيساً عليهم يأمرهم وينهاهم»[37]. وبالتالي، فإنَّ السارد في هذه الرواية ينتقد الساسة العراقيين منذ مجيء الاحتلال الإنجليزي إلى العراق حتى الآن من خلال شخصية بيل، المرأة التي أثبتت وجودها في الذاكرة العراقية بالصورتين المتضادتين: السلبية منها والايجابية، ليظهر للمتلقي أن تلك المرأة احتالت على أولئك القادة واستطاعت أن تنشئ دولتهم دون أن يكون لهم أي بصمة فيها، ويُجمل نقده بعبارة دالة، تفسر رمزية تلك الشخصية، يقول: «نحن نصنع ثورات وهمية في حانات قذرة وهم يصنعون منافينا القادمة»[38]؛ فتشخيص المنافي، مكون دلالي يشير إلى معنى استشرافي مرتبط بسلوكيات «الاستعمار»، الذي لا ينفك عن الدولة التي قام باستعمارها حتى «يفككها» كلها، ويؤسس لنفسه نفوذا حتى لو خرج منها، فالثورات المتعاقبة التي عصفت بالعراق مهدت للغزو الأكبر الذي قامت به أمريكا عام 2003م، لتنهي بذلك حقبة زمنية، وتؤسس لحقبة زمنية جديدة، قائمة على العنف والمقدس، الذي قتل فيه الأخ أخاه، لاعتبارات طائفية زادت من تفكك المجتمع وانهياره، وزيادة نسبة المنفيين من أبنائه.

أما رواية «خاتون بغداد» للروائي شاكر نوري، فهي من الروايات المعاصرة التي أطرت لأحداث الثورة من خلال تمثيل شخصية الخاتون، حيث استطاع نوري أن يعيد مس بيل -روائياً- إلى الحياة، وينطقها بعبارات تتوافق وشخصيتها الحقيقية التي تعرف عليها في كتب المؤرخين ورسائلها، بالإضافة إلى «تلاعبه بالزمن الروائي»، حيث كان الزمن السردي داخل الرواية مجزأ إلى قسمين: الزمن التاريخي، والذي يحاكي حياة مس بيل، وخصص له الكاتب ساردين هما: السارد العليم غير المشارك، ومس بيل نفسها. والزمن المعاصر، وهو الذي يتوافق مع زمن الكاتب نفسه، وخصص له عددا من الساردين، وما يهمنا هنا هو الزمن الأول، الذي تتشابه أحداثه -في أجزاء منه- الرسائل التي كتبتها الخاتون، والتي ترجم حديثا عدد منها إلى العربية.

يغلب على رواية «خاتون بغداد» الطابع السيري الذي يحاكي -كما ذكرت سابقا- حياة الخاتون، وبالتالي فإن كل خطاب سردي داخل هذه الرواية هو حديث لهذه الشخصية أو حديث عنها، سواء في الزمن التاريخي أو الزمن المعاصر، وكان الهدف الأساسي لاستدعاها هو «توضيح» الحالة التي كان ومازال يعيشها العراق، وكأن مس بيل الشخصية التأويلية التي يمكن الاعتماد عليها في صياغة مثل هذا التوضيح، واللافت أن هذه الرواية لم تأت على وصف ثورة العشرين بشكل مباشر، وإنما اكتفى كاتبها بتأطير بعض الأحداث التي قد تتصل ببعض أحداثها، إلا أن وجود شخصية مس بيل، عزز من بعض «العلامات القولية» التي يمكن أن نؤلهها بأنها ذات علاقة مع أحداث الثورة.

تضمّن خطاب مس بيل السردي بعض العلامات الإيحائية إلى وصف حال العراق قبل وأثناء وبعد ثورة العشرين، وذلك من خلال رسم صورة واضحة للعراقي الثائر، وهو خطاب مكرر في عدد من صفحات هذه الرواية، ومن الأمثلة على ذلك عندما سألها السِّير بيرسي كُوكس عن كيفية تفكيرها بالعراقيين، ردت عليه مس بيل بأنهم «أشداء من الداخل، لا نعرف متى يهدؤون كالحملان الوديعة ولا متى يهيجون كالثِّيران الوحشية، إن تمرد أرواحهم يشبه فيضان نهريهم الخالدين دجلة والفرات»[39]، وهذا «وصف تعبيري تلخيصي» لشخصية العراقيين؛ فالعراقي الذي فرح بقدوم الإنجليز إلى العراق وإنهاء الحكم التركي فيه، هو نفسه العراقي الذي سيقاتل ضد ما أسماه «الاحتلال الإنجليزي»، ليخوض ضده الثورة في سبيل نيل الحرية، وهو المعنى نفسه الذي أعاد شاكر نوري تمثيله بصورة أكثر وضوحا من خلال سرد حكاية (ابن عَبْدكَة)، العراقي الذي قاتل ضد الجندرمة العثمانية، والذي سيكون بعد ذلك أحد المقاتلين البارزين في ثورة العشرين؛ حيث قاد مجموعة من المقاتلين لمهاجمة مقرات وسرايا الإنجليز في مناطق بعقوبة الشمالية، إلى أن اعتقل في أحد المعارك، وحكم عليه بالإعدام لولا تدخل مس بيل نفسها، ليُخفف الحكم إلى عشرين سنة، ويخرج من سجنه، وبعد سنين طويله من انتهاء الثورة، وبينما كان في أحد الأسواق قتله أحد الأشخاص ممن قتل ابن عبدكة أحد أقاربه، وقد أطلقت عليه مس بيل لقب «روبن هود العراقي»، لتشابهه مع الشخصية الإنجليزية

---

36 الحسن، ص112

37 الوردي، ص346

38 الحسن، ص115

39 نوري، ص21

الفلكلورية «روبن هود»، الذي كان مضرب مثل في الشجاعة والقوة والخروج عن القانون، وهو ما كان يفعله ابن عبدكة أيضا، وفق رؤية مس بيل.

تجدر الإشارة إلى أن الحديث عن ابن عبدكة، وهو شخصية تاريخية حقيقية ومغيبة، كان له هدفين أساسين في هذه الرواية، الأول، إثارة انتباه المتلقي إلى هذه الشخصية المنسية، والثاني، إظهار تهميش ونسيان مثل هذه الشخصية من الذاكرة العراقية، وفي هذا قالت مس بيل:

> «كُنت أرتعش في محطّة القطار ورأيت رجلا يخرج من بين الجُموع ويُدافع عنّي يوصلني إلى بغداد آمنة، سالمة. كثيرون نسوا هذا الرّجل، واعتبروه من شقاوات بغداد، لكنه طبع صورته في ذهني، ولم يُغادره أبداً. تساءلت: كيف نسي العراقيون بطلهم ونحن نعمل لبطلنا روبن هود مراسم ملكية؟»[40]

ولذلك كانت شخصية مس بيل في هذه الرواية تمثل الشخصية المدافعة عن «الذاكرة العراقية»، فلم يكن دفاعها عن مثل هذه الشخصيات فحسب، وإنما كان في دفاعها عن «التراث المعماري» الذي ازدهرت به مدينة بغداد، والذي كان سيقوم بهدمه أحد رجال السياسة المعروفين في تلك الفترة، وهو أرشد العُمري، الذي اتخذ قرارا بهدم خان مرجان، ما أثار غضب الخاتون، لتردعه عن فعل ذلك، وفي هذا المشهد، يورد الكاتب استشرافا للمستقبل على لسان الخاتون، التي تقول: «مَن يدري ربّما يظهر بعض المتوحشّين يوماً ويُدمروا كل هذه الكنوز والآثار ويعتبرونها أصناماً؟»[41]، في إشارة واضحة إلى حال العراق بعد عام 2003م.

كما تحدثت مس بيل عن ثورة العشرين من خلال سرد تاريخي مباشر لبعض الأحداث الرئيسية التي حدثت أثناء وقوعها، ومن أهم تلك الأحداث، مقتل الجنرال لجمان على يد ضاري بن محمود أحد قادة الثوار المعروفين، واللافت هنا «أسلوبية التعبير» لوصف تلك الفترة التاريخية، حيث كان سرد الحكاية على لسان مس بيل نفسها، من خلال توظيف «الوصف السردي التزييني»، الذي يجذب المتلقي، ويقربه من الحدث المسرود، تقول بيل:

> «كان الفجر يبزغ، ويخفي معه بعض الآلام التي لا نراها، بعض النّعاس في عينيّ، والمكان يأخذ شكلا آخر مع الضّياء، أعجزُ عن تفسير ألوانه وسأكتفي بتدوين بعض الكلمات التي تقتحم ذهني، وأترك البقية لوضح النّهار. لم أصفح عن الذين قتلوا الجنرال لجمان لأنهم أطلقوا عليه النّار من الظهر، وهذه ليست من شيم فروسيّة العرب، بل إن وحشيّتهم وصلت إلى أنّهم دفنوه بأيديهم عشوائيا في المكان ذاته..»[42]

ولو قارنا سرد هذه الحادثة مع السرد التاريخي المجرد الذي أورده آل فرعون في كتابه، لوجدنا الفروق الواضحة بينهما؛ حيث كان السرد التاريخي مفصلا وبدقة لمجريات ما حدث بين الجنرال لجمان وضاري بن محمود، بالإضافة إلى توظيف «اللغة الثورية» التي هي في النهاية لغة المؤرخ نفسه، والذي كان أحد المشاركين في أحداث الثورة، وبالتالي فإن «تعبيره السردي التاريخي» سيكون مقيدا بهذه اللغة، كتب آل فرعون على سبيل المثال:

«صار لجمان يتخطى في ردهة المخفر ذهابا وإيابا ويوجه إلى ضاري كلمات قارصة وجارحة لا يتمكن عربي بأي حال من الأحوال قبولها.. ثم تحامل على ضاري وأهانه مسنداً إليه تهمة قطع الطرق وسلب المارة، وبعد أن رأى ضاري أن لجمان فاتك به لا محالة، ثارت حميته، فخرج من بين يدي لحمان لحظة، ثم عاد ومعه ولده سليمان... فدخلوا على لجمان وقتلوه انتصارا لشرف ضاري أولا، وإعلاناً لسخطهم على الحكومة المحتلة وإظهار أنفسهم بين الثوار ثانياً وأخيراً، وأراد سائق سيارة الجنرال أن يقاوم هؤلاء الأبطال فقتلوه أيضا، ثم خرجوا من المخفر فرحين مستبشرين»[43]

فنلاحظ اللغة الثورية الواضحة، والأسلوب الوصفي الدقيق للحادثة، وهو ما تخلى عنه الروائي شاكر نوري، الذي قصد التعبير عن وجهة نظر الإنجليز من تلك الحادثة، وعلى لسان مس بيل نفسها، التي وظفت هي الأخرى «اللغة السردية» التي تتوافق مع رؤيتها كمحتل، ولذلك ورد في خطابها السابق عبارات مثل «الوحشية»، و»إطلاق النار من الظهر»، و «طريقة الدفن»... وكل هذه علامات تحمل في طيّاتها دلالات إشارية إلى أن كل طرف يعبر عن الحدث وفق رؤيته هو فقط. كما نلاحظ قيمة التمثيل السردي الذي يدلل على عدم تقيّد الروائي بما ورد في كتب التاريخ، فطريقة دفن الجنرال وقتله لم يأت عليها المؤرخ، أما الروائي فلجأ إلى التفصيل في ذلك من أجل خلق الإثارة والتشويق.

---

40 المرجع السابق، ص275

41 نوري، ص189

42 المرجع السابق، ص273

43 آل فرعون، ص311

كما تحدثت الرواية عن أحداث ما بعد الثورة، وتنصيب الملك فيصل الأول ملكاً على العراق، ليطلق عليها اسم «المملكة العراقية»، التي كان وراء ترسيخها مس بيل نفسها، وقد اقتحم شاكر نوري الحياة الخاصة للخاتون، ليكشف لنا عن علاقتها بالملك فيصل، وقد خصص جزءا مهما من روايته لوصف تلك العلاقة، وما يهمنا هو أن مس بيل كانت الشخصية المركزية لكل هذه الأحداث، والمشكّل الأساسي لجزء كبير منها، وما حضورها كشخصية روائية إلا وسيلة لإعادة قراءة بعض تلك الأحداث من وجهة نظر مختلفة.

الخاتمة

وفي الختام، فإنّ أحداث ثورة العشرين كانت عبارة عن «أطر سردية»، وُظّفت بطريقتين اثنتين، هما: تضمين أحداثها داخل السياق الروائي كله كما هو الحال في روايتي «جلال خالد» و «الزناد»، واستعارة الشخصيات التاريخية وبناء بعض أحداث الثورة من خلالها، كما هو الحال في روايتي «حقول الخاتون» و»خاتون بغداد»، وفي كلتا الطريقتين فإن حضور ثورة العشرين في النص الأدبي كان عبارة عن حضور ترميزي، يتكون من استعارات حية تشير إلى أزمنة الاستعمار بأنواعه في العراق، بالإضافة إلى التعبير عن جوانب الحياة الأخرى التي كانت نتيجة فعلية لأحداث الثورة، لاسيما فيما يتعلق بالعشائرية والحياة الفكرية والاستشراف الزمني ومحاكاة الحروب الحديثة والمعاصرة التي عصفت بالعراق.

المراجع

الكتب العربية والمترجمة

أحمد، عبد الإله، الأدب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية، الجزء الأول، العراق: منشورات وزارة الاعلام، 1977م

أرندت، حنه. في الثورة. ترجمة: عطا عبد الوهاب، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008م.

آل فرعون، فريق المزهر. الحقائق النّاصعة في الثورة العراقية سنة 1920 ونتائجها. بغداد: مطبعة النّجاح، 1952م

بشارة، عزمي. في الثورة والقابلية للثورة. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012م.

الحسن، حمزة. حقول الخاتون. عمَّان: دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2009م.

حمودي، باسم عبد الحميد، رحلة مع القصة العراقية، العراق: منشورات وزارة الثقافة والاعلام، 1980م

خدوري، مجيد، الاتجاهات السياسية في العالم العربي «دور الأفكار والمثل العليا في السياسة»، بيروت: الدار المتحدة للنشر، 1972م

الريحاني، أمين. فيصل الأول. بيروت: مطبعة صادر، 1934م.

الطالب، عمر، الفن القصصي في الأدب العراقي الحديث، «الرواية العربية في العراق»، الجزء الأول، بغداد: منشورات مكتبة الأندلس، 1971م

فيليب، هامون. سيميولوجيا الشخصية الروائية. ترجمة: سعيد بنكراد، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2013م.

القاضي، محمد، معجم السرديات، تونس: دار محمد علي للنشر، 2010م

كاظم، نجم عبد الله، التجربة الروائية في العراق في نصف قرن، متابعة تاريخية وتحليل موجز لأبرز المحاولات الروائية، العراق، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986م

مجموعة من المؤلفين. طرائق التحليل السردي. الرباط: منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1992م.

نوري، شاكر. خاتون بغداد. ط3، بغداد: دار سطور للنشر والتوزيع، 2018م.

الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. الجزء الخامس، بغداد: دار الوراق للنشر، 1969م.

الياسري، شمران. رواية الزناد. ط2، بغداد: دار الرواد المزدهرة للطباعة والنّشر والتوزيع المحدودة، 2007م.

ياكبسون، رومان. قضايا الشعرية. ترجمة: محمد الولي، المغرب: دار توبقال للنشر، 1988م.

المجلات

تودوروف، تزفيتان، الناس-الحكايات: «ألف ليلة وليلة» كما ينظر إليها التحليل البنيوي، لبنان: مجلة مواقف، ع16، 1 يوليو 1971م

السيّد، محمود أحمد. «جلال خالد: قصة عراقية موجزة». مجلة الأقلام، ع5 1 مايو 1977م.

منيف، عبد الرحمن. «التاريخ ذاكرة إضافية للإنسان». مجلة الكرمل، ع36، 2000م.

وايت، هايدن. «شعرية التاريخ». ترجمة: ثائر ذيب، مجلة أسطور، ع4، 2016م.